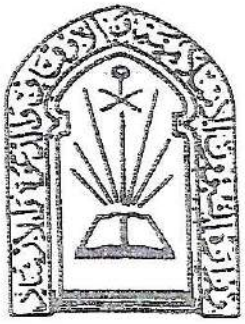

المملكة العربية السعودية
وزارة الشئون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

الجزء الثاني والعشرون

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية

ح وزارة الشئون الاسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النّشر

باجودة ،حسن محمد

التفسير البسيط للقران الكريم ج٢٢ / حسن محمد باجودة

الرياض،١٤٢٥هـ

٣٥٢ص، ٢٥ سم

ردمك : ٦-٤٦٧-٢٩-٩٩٦٠

١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث أ ـ العنوان

ديوي ٦ ,٢٢٧ ٣٨٩٢/ ١٤٢٥

رقم الإيداع : ٣٨٩٢/ ١٤٢٥

ردمك : ٦-٤٦٧-٢٩-٩٩٦٠

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

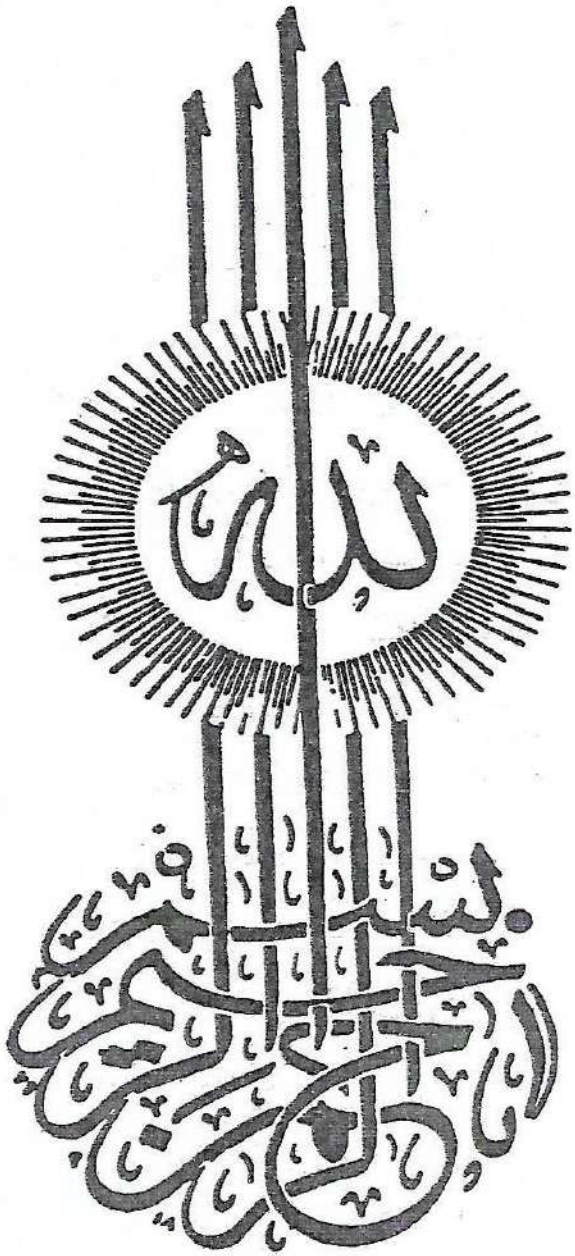

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء الثاني والعشرين من القرآن الكريم، يغطّي تمام سورة الأحزاب، وسورة سبأ، وسورة فاطر، وجزءاً من سورة يس. وقد قمت بعمله على غرار الواحد والعشرين جزءاً السّابقة. إنّ هذا الجزء الثّاني والعشرين، هو ميدان التفسير للمتسابقين في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، من بين حقول التّنافس الخمسة في مسابقة الملك عبدالعزيز الدّوليّة، الخامسة والعشرين، لحفظ القرآن الكريم وتلاوته وتفسيره، التي عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة والإرشاد، برئاسة معالي وزيرها الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمّد آل الشيخ في أثناء الفترة من ٣/ ٨/ ١٤٢٤هـ حتّى ١١/ ٨/ ١٤٢٤هـ الموافق ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٣م حتّى ٩/ ١٠/ ٢٠٠٣م وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال التي تمت في مجال التفسير، في أثناء المسابقة الخامسة والعشرين. علماً بأن ميدان المتسابقين في المسابقة القادمة، ان شاء الله تعالى، هو الجزء الثالث والعشرون من القرآن الكريم.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة، كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة التي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الذي حرصت فيه، كما حرصت في سابقيه، على أمور، أهمّها ثلاثة:

١ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات.

٢ـ أن أشير الى الدّروس التي يمكن أن تستفاد.

٣ـ أن أنسب الأقوال كلّها الى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه سميعٌ مجيب.

﴿ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولاتَحْمِل علينا إصراً كما حَمَلْته على الّذين مِن قبلنا. ربّنا ولاتحمّلنا مالاطاقة لنا به. واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيدّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرّمة
صبيحة يوم الثلاثاء ٢٢/ ٨/ ١٤٢٠هـ
الموافق ٣٠/ ١١/ ١٩٩٩م

كتبه الفقير الى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

أوّلاً

تمام سورة الأحزاب

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ
وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ
ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا
﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا
يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن
وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن
تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ
إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا
(٥٥) إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُّهِينًا (٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ ۖ
أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ
وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا
فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ
وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

بين يدي التفسير

(١)

« أمّهات المؤمنين أسوةٌ حسنةٌ للمؤمنات، وبعض نعوت المؤمنين والمؤمنات»

الآيات (٣١ ـ ٣٥)

في نهاية الجزء السّابق الحادي والعشرين نادى الحقّ جلّ وعلا حبيبه المصطفى ﷺ وأمره أن يخيّر زوجاته أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ بين اختيار الحياة الدّنيا وزينتها فالتّسريح الجميل لهنّ وأعطائهنّ متعة الطّلاق، وبين اختيار الله تعالى ورسوله ﷺ والدّار الآخرة في جنّات النّعيم، فإنّ الله تعالى قد أعدّ للمحسنات منهنّ أجراً عظيماً في الجنّة. لقد اخترن جميعهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين الله تعالى ورسوله والدّار الآخرة فكان لهنّ الأجر العظيم في جنّات النّعيم. كما نادى الحقّ جلّ وعلا نساء النّبيّ ﷺ وخاطبهنّ بأنّ الّتي تأتي منهنّ بفاحشةٍ مبيّنةٍ من بذاءة لسان وسوء خلق يضاعف الله تعالى لها العذاب ضعفين ويكون لها من العذاب مثلا ما للمرأة المسلمة الأخرى الّتي تأتي بالفاحشة المبيّنة. وإنّما كان لهنّ ذلك النّوع من العذاب لأنّ تلك الفاحشة المبيّنة لا يتوقّع إتيان الواحدة منهنّ لها. وما أنأى أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ عن إتيان شيءٍ من ذلك. إنّ ذلك النّوع من العذاب يسيرٌ على الله تعالى.

وتواصل أولى آيات الجزء الثّاني والعشرين مخاطبة أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين وتقول لهنّ: وإنّه مَنْ يَلْزَمْ منكنّ الطّاعة والخضوع لله تعالى ولرسوله ﷺ وتعمل صالحاً يؤتها الله تعالى أجرها مرّتين وأعدّ لها رزقاً كريماً في الجنّة. ويلاحظ أنّ الثّواب المضاعف في حال الطّاعة يقابل العذاب المضاعف في حال النّشوز وسوء الخُلُق. ويستمرّ خطاب الحقّ جلّ وعلا نساء النّبيّ ﷺ ويتكرّر النّداء في السّورة الكريمة بل في القرآن الكريم كلّه: ﴿يا نساء النّبيّ﴾ ويبيّن الحقّ جلّ وعلا لأمّهات المؤمنين أنّ الجماعة الواحدة منهنّ لفضلها ورفيع

منزلتها ليست كالجماعة الواحدة من النّساء المسلمات، وأنّ الواحدة منهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ ليست كالواحدة من النّساء المسلمات. إنّ أمّهات المؤمنين الأسوة الحسنة للمؤمنات إن اتّقين الله تعالى، وقد ضربن رضوان الله تعالى عليهنّ المثل الأعلى في التّقوى، عليهنّ ألاّ يخضعن بالقول للرّجال غير المحارم ولا يُلِنّ الكلام حينما تضطرّ الواحدة منهنّ لمخاطبة الرّجال الأجانب، كيلا يطمع فيهنّ الّذى في قلبه مرض النّفاق، وعليهنّ أن يقلن قولاً معروفاً شرعاً وعقلاً وعُرْفاً.

وعلى أمّهات المؤمنين الأسوة الحسنة للمؤمنات أن يَقَرْنَ في بيوتهنّ وألاّ يخرجن من بيوتهنّ إلاّ لضرورة ملحّة، وعليهنّ ألاّ يتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى السّابقة على الإسلام، حينما كانت المرأة في المنزل وفي خارج المنزل تبدى زينتها، وتتعمّد أن تظهر حُلْوَةً في عيون الرّجال الأجانب. وعلى أمّهات المؤمنين أن يقمن الصّلاة ويحافظن عليها، وأن يعطين الزّكاة مستحقّيها، وأن يُطِعْنَ الله طاعةً مطلقةً ويُطِعْنَ رسوله ﷺ. إنّ الله تعالى إنّما يريد بهذا الهَدْي أن يُذْهِب السّوء والفحشاء عن أهل بيت محمّد ﷺ وأن يطهّر آل بيت النّبوّة تطهيرا.

وإنّ عليهنّ أن يذكرن باللّسان والقلب والجوارح ما يُتْلَى في بيوتهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ من آي الذّكر الحكيم والسّنّة النّبويّة المطّهرة. إنّ الله تعالى كان دائماً وأبداً لطيفاً بكنّ إذ جعلكنّ في البيوت الّتى تُتْلَى فيها آيات الله تعالى والحكمة، خبيراً إذ اصطفاكنّ زوجاتٍ لحبيبه خاتم النبيّين وأشرف المرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

ثمّ تأتى مجموعةٌ من النّعوت مجسِّدةٌ لأركان الإسلام الخمسة يتحلّى بها رجال الأمّة ونساؤها كي يغفر الله تعالى لهم ذنوبهم ويثيبهم على الحسنات أجزل الثّواب. وهذه النّعوت متعلقّةٌ بالأخلاق والسّلوك والمعاملة. وهي عشرة نعوتٍ كاملة تعمّق ما سبق من هدي سماويّ بيّنته الآيات الكريمات في ندائها المصطفى ﷺ وأمّهات المؤمنين رضوان لله تعالى عليهنّ أجمعين.

وهذه النّعوت هي الإسلام، وأركانه الخمسة معروفة، والإيمان، وأركانه السّتّة معروفة، والقُنوت بمعنى طول الدّعاء في أثناء القيام للصّلاة، والصّدق مع

الله تعالى ومع رسوله ﷺ والمؤمنين، والصّبر على الطّاعات والبلاء وعن المعاصي، والخشوع لله تعالى وبخاصّة في أثناء إقامة الصّلاة، والصّدقة وتشمل الزّكاة المفروضة بطريق الأحرى، والصّوم فرضاً ونفلاً، وحفظ الفرج إلاّ على الزّوج وعلى من ملكت الأيمان في حقّ الرّجال، وذِكْرُ الله ذكراً كثيراً. إنّ من يتّصف بهذه النّعوت من رجال المؤمنين ونسائهم أعدّ الله تعالى لهم يوم القيامة مغفرةً لذنوبهم وأجراً عظيماً في الجنّة الّتي عرضها السّماوات والأرض وأعدّها الله تعالي للمتّقين.

(٢)

« محمّدٌ ﷺ رسول الله وخاتم النّبيّين، وليس أبا أحدٍ من رجال النّاس »

الآياتً (٣٦ ـ ٤٠)

بيّنت الآيات الكريمات السّابقات مجموعةً من نعوت المؤمنين والمؤمنات تأكيداً لمعاني الأركان الخمسة للإسلام. وتقرّر أولى آيات القسم التّالي هذا وجوب طاعة المؤمنين والمؤمنات اللهَ تعالي ورسولَه ﷺ طاعةً مطلقة. إنّ الله تعالى إذا قضى أمراً وقضى رسوله ﷺ فعلى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة الطّاعة المطلقة، ولا مكان لاختيار غير ما قضى الله تعالى ورسوله. وهذه الآية الكريمة تشمل في المقام الأوّل زينب بنت جحش وأخاها عبد الله رضي الله تعالى عنهما، فقد قضى الله تعالى أن يتزوّج زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه الّذي كان يدعى زيد بن محمّد زينب بنت جحش ابنة عمّة المصطفى ﷺ. أمر الله تعالى حبيبه ﷺ أن يذهب ويكلّم في هذا الزّواج زينب وجهاً لوجهٍ قبل نزول آية الحجاب. وكانت سنّها رضي الله تعالى عنها آنذاك ستّاً وثلاثين سنة. امتثل المصطفى ﷺ أمر ربّه عزّ وجلّ وذهب وخطب زينب البِكْر لزيد بن حارثة. ظنّت زينب أوّل الأمر أنّ النّبيّ ﷺ جاء

يخطُبُها لنفسه ففرحت. ولمّا علمت أن النّبيّ ﷺ جاء يخطُبُها لزيد بن حارثة استنكفت واستنكف أخوها عبد الله رضي الله تعالى عنهما. اجتهد النّبيّ ﷺ في إقناع زينب كي ترضى زيداً زوجاً. وفي تلك الأثناء نزلت أولى ايات القسم، وتلاها المصطفى ﷺ، فبادرت زينب وأخوها إلى الامتثال إلى ما فيه رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ، وتزوّج زيد زينب وعاشرها معاشرة الأزواج.

وإنّ الله تعالى الّذى أمر محمّداً ﷺ أن يخطب زينب لزيد أوحى إليه بأنّ زينب الّتى امتثلت لما فيه رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ سيكافئها الله تعالى بأن تكون مستقبلاً زوجاً للمصطفى ﷺ وأمّاً للمؤمنين بعد أن يطلّقها زيدٌ وتنتهى عدّتها.

إنّ الآية الكريمة تشمل كلّ مؤمنٍ ومؤمنة، فالعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، والآية الكريمة تقرّر أنه ما ينبغى لأيّ مؤمنٍ ولا مؤمنة وما يصحّ إذا قضى الله تعالى ورسوله أمراً أن يكون لهم حقّ اختيار غير ما قضى الله تعالى ورسوله ﷺ. ومن يعص الله تعالى ويعص رسوله ﷺ فقد ضل ضلالاً مبيناً، وخرج عن الصّراط المستقيم خروجاً واضحاً بعيداً.

ثمّ تأتى أشدّ آيات عتاب المصطفى ﷺ لأنّه أخفى في نفسه ما أوحى الله تعالى إليه من أنّ زينب ستكون زوجته عليه الصّلاة والسّلام بعد طلاق زيدٍ لها وانقضاء عدّتها، ولأنّه عليه الصّلاة والسّلام خشي المنافقين أن يقولوا: تزوّج محمدٌ مطلّقة متبنّاه، والله تعالى أحقّ أن يخشاه المصطفى ﷺ، فقد أباح له أن يتزوّج زينب مطلقة زيد لأنّ زيداً ليس ابن محمّد من صلبه ولكنّه متبنّاه. وكما أحلّ الله تعالى لمحمّد ﷺ أن يتزوّج مطلّقة متبنّاه أحلّ ذلك لكل المسلمين. إنّه لا معنى لأن يخشى محمّد ﷺ قول المنافقين، وأن يخفي في نفسه ما أوحى الله تعالى إليه بأنّ زينب ستكون إحدى أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين.

إنّ آية العتاب الشّديد تقول: واذكر يا محمّد إذ تقول لزيد بن حارثة الّذى أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإسلام، وأنعمت يا محمّد عليه بنعمة العتق من الرّقّ: أمسك عليك زوجك واحتفظ بها، واتّق الله تعالى في طلاقها. وتُخْفى يا محمّد

في نفسك ما سبق أن أوحيت إليك بأنّ زينب ستكون إحدي زوجاتك بعد أن يطلّقها زيدٌ وتنقضي عدّتها. وتخشى يا محمّد المنافقين أن يقولوا تزوّج محمّد مطلّقة متبنّاه، والله تعالى أحقّ أن تخشاه، وهو الّذى اقتضت حكمته القضاء على عادة العرب في تنزيل المتبنّى منزلة الابن من الصُّلب في تحريم زواج متبنّيه مطلَّقته، وهو الّذى أذن لك بأن تتزوّج زينب مطلّقة متبناك زيدٍ، كما أذن بذلك لكلّ مسلم.

فلمّا قضى زيدٌ من زينب وطره وعاشرها معاشرة الأزواج، وطلّقها وانقضت عدّتها زوّجناكها يا محمّد من فوق سبع سماوات، لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ وضيقٌ وإثم في الزّواج من مطلّقات أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وعاشروهنّ معاشرة الأزواج. وكان أمر الله تعالى بزواجك يا محمّد من زينب وبالقضاء على عادة العرب في تنزيل المتبنّى منزلة الابن من الصّلب مفعولاً وكائناً لا محالة.

وكما بادر المصطفى ﷺ إلى امتثال أمر ربّه عزّ وجلّ فخطب زينب البكر لزيد بن حارثة بادر إلى الزّواج شخصياً من زينب الثّيب.

ويقرّر السّياق أنّه ما كان على النّبيّ ﷺ من حرجٍ وإثمٍ فيما فرض الله تعالى له وأباح من زواج زينب رضي الله تعالى عنها. هذه هي سنّة الله تعالى في الّذين مضوا قبل محمّد ﷺ من المرسلين والنّبيّين. وكان أمر الله تعالى قضاءً مقضيّاً. إنّهم الّذين يبلّغون رسالات الله تعالى وحده لا شريك له ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله تعالى وحده دون سواه. وكفاك يا محمّد بالله حافظاً لأعمال خلقه ومحاسباً لهم عليها.

والآية الكريمة الأخيرة تقرّر أنّ محمّداً ما كان أبا أحدٍ من رجالكم أيّها المؤمنون وأيّها النّاس، فهو عليه الصّلاة والسّلام ليس أبا زيد بن حارثة وليس أبا أيّ ولدٍ ذكرٍ بلغ الحُلُم. إنّ كلّ أولاده عليه الصّلاة والسّلام ماتوا أطفالاً دون سن البلوغ. إنّ محمّداً ﷺ رسول الله تعالى وخاتم النّبيّين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. والمعروف أنّ نعمتي الرّسالة النّبوّة محض فضلٍ من الله تعالى، وأنّ نعمة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المؤدّى إلى نعمة الرّسالة الأرفع، فكلّ رسولٍ

نبيّ، ،ليس كلّ نبيّ رسولاً. ويشترك كلٌّ من الرّسول والنّبيّ في إيحاء الله تعالى إليه وتكليم الملائكة له، ويزيد الرّسول بأنّه يبلّغ أمّته الرّسالة الّتي خصّه الله تعالى بها.

والآية الكريمة تجمع للنّبيّ ﷺ بين نعمة الرّسالة، وقد عرفنا أنّها كبرى نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده، وبين نعمة ختم النّبوّة، فمحمّدٌ ﷺ خاتم النّبيّين فلا نبيّ بعده عليه الصّلاة والسّلام إلى يوم الدّين. وفي تقرير ختم النّبوّة بمحمّدٍ ﷺ تقريرٌ لختم الرّسالة بطريق الأحرى والأولى، لأنّ الطّريق الوحيد المفضي إلى مرتبة الرّسالة حينما يوصد وهو طريق النّبوة فذلك معناه ختم الرّسالة أيضاً. وهذا واضح. وهذا مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في إفادة الجديد من المعاني دائماً وأبداً. إنّ القول : ﴿ولكن رسول الله﴾ يفيد أنّ محمّداً ﷺ رسول الله تعالى كما يفيد أنّه عليه الصّلاة والسّلام نبيّ، لأن الرّسول يجب أن يكون نبيّاً. وإن القول : ﴿وخاتم النّبيّين﴾ يفيد أنّ محمّداً ﷺ خاتم النّبيّين، كما يفيد أنّه عليه الصّلاة والسّلام خاتم المرسلين، لأنّ النّبوّة الطّريق الوحيد المؤدي إلى الرّسالة، فإذا كان الطّريق إلى النّبوّة موصوداً، فذلك معناه أنّ الطّريق إلى الرسّالة موصودٌ بطريق الأحرى والأولى. وهكذا يومىء القول : ﴿ولكن رسول الله﴾ إلى نعمة الرّسالة ونعمة النّبوّة. ويومىء القول : ﴿وخاتم النّبيّين﴾ إلى نعمة ختم النّبوّة ونعمة ختم الرّسالة أيضا.

وكانَ الله تعالى بكلّ شيءٍ عليماً، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم من يستحقّ من عباده أن يكون أشرف المرسلين، وخاتم النّبيّين، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

(٣)

« الله تعالى يصلّى على المؤمنين، والنّبيّ ﷺ سراجٌ منير »

الآيات (٤١ ـ ٤٨)

يتألّف هذا القسم من ثماني آيات كريمات، يتعلّق أربعٌ منها بالذّات العليّة، ويتعلّق أربعٌ منها بالمصطفى ﷺ. ينادي السّياق الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ويأمرهم بأن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً في كلّ الأحوال، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وبأن يسبّحوا الله تعالى وينزّهوه عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون ممّا لا يليق بعزّته وجلاله. وحينما يكون ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً آخر النّعوت في الآية الكريمة الخامسة والثلاثين الّتي تتحدّث عن المسلمين والمسلمات يكون الأمر بذكر الله تعالى ذكراً كثيراً في هذا القسم نوعاً من الرّباط بين أقسام السّورة الكريمة. ويكون ثمرة ذكر العباد الله تعالى ذكراً كثيراً ذكر الله تعالى العبادَ في الملأ الأعلى. إنّ الله تعالى هو الّذي يصلّي على المؤمنين، يثني عليهم ويرحمهم، وإنّ الملائكة الأطهار يصلّون على المؤمنين ويستغفرون الله تعالى لهم، لِيُخْرِجَ الله تعالى المؤمنين والمؤمنات من ظلمات الضّلال والجهل، إلى نور الهدى والعلم. وكان الله تعالى رحيماً بالمؤمنين دائماً وأبداً، في الدّنيا والآخرة. إنّ رحمة الله تعالى في الدّنيا تتجلّى في الكثير من المظاهر، ومنها إجابة الله تعالى المضطرّ إذا دعاه، وكشف السّوء عنه. وإنّ رحمة الله تعالى في الآخرة تتجلّى في غَفْر ذنوبهم، وستر عيوبهم، وتبديل سيّئاتهم حسنات.

وإنّ تحيّة هؤلاء المؤمنين يوم يلقون الله تعالى في الآخرة سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيمٍ على لسان الملائكة الأطهار. هذا إلى أنّ السّلام تحيّة بعض المؤمنين بعضاً في الجنّة. وقد أعدّ الله تعالى للمؤمنين في الجنّة أجراً عظيماً، ورزقاً كريماً، وخيراً

عميماً. وهكذا يكون أجر المؤمنين عظيماً ثمرةً لاتّصافهم بمجموعةٍ من النّعوت، منها طاعة الله تعالى طاعةً مطلقة، وذكر الله تعالى ذكراً كثيرا.

وبشأن المصطفى ﷺ يناديه الحقّ جلّ وعلا بالقول : ﴿يا أيّها النّبيّ﴾ ويصفه بأعظم صفاته وكونه رسول ربّ العالمين : ﴿إنّا أرسلناك﴾ وإنّ ذكر هاتين النّعمتين في حقّه عليه الصّلاة والسّلام يذكرّنا بالقول في الآية الكريمة الأربعين السّابقة : ﴿ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين﴾.

ويوصف المصطفى ﷺ بمجموعة من النّعوت. إنّه عليه الصّلاة والسّلام قد أرسله الله تعالى شاهداً على أمّته بأنّه قد بلّغ الرّسالة، ومبشّراً المؤمنين الطّائعين بجنّات النّعيم والثّواب العظيم، ومنذرا الكافرين العاصين بنار الجحيم والعذاب المهين، وداعياً إلى توحيد الله تعالى بأمره عزّ وجلّ، وبمنزلة الشمس السّراج الوهّاج الّذى يملأ الكون حرارةً ودفئاً، والأجسام صحّةً وبشرا، وبمنزلة القمر الّذى يهدى نوره السّائرين فى ظلمات اللّيل البهيم، والّذى يأتى منه الخير الخالص. إنّ المصطفى ﷺ باعتباره مصدر كلّ خير بإذن الله تعالى والأسوة الحسنة لكلّ المؤمنين بمنزلة الشّمس مصدر الدّفء والحرارة والدّفء والأشعّة. وإنّ المصطفى ﷺ باعتباره لا يأتى منه إلاّ الخير الخالص بمنزلة القمر الّذى يعكس ضوء الشّمس نوراً، والّذى لا يرتبط به شيءٌ من أذىً يرتبط أحياناً بالشّمس كضربتها. إنّ القول في حقّ المصطفى ﷺ : ﴿وسراجاً منيرا﴾ يأخذ خير ما في الشّمس وهو قوّةُ ما يَنْبُع منها من ضوء، وشمولُ ما يصل منها من نفع، ويأخذ خير ما في القمر وهو نوره الّذى يأتى منه النّفع الخالص والخير المحض. إنّه لم يأت في الآية الكريمة القول : « وسراجاً مضيئاً » مع أنّ الضّوء هو الّذى يصدر من السّراج أي الشّمس، بسبب ما قد يرتبط بالضّوء من أذىً كضربة الشّمس، إنّما جاء القول: ﴿وسراجاً منيرا﴾ لأنّ النّور الصّادر من القمر خيرٌ كلّه، مع أنّه انعكاسٌ لضوء الشمس.

وكما كان للمؤمنين ثوابٌ على الذّكر كان لهم من الله تعالى فضلٌ كبيرٌ وأجرٌ عظيم بسبب طاعة الرّسول ﷺ الّتى هى طاعةٌ لله تعالى على الحقيقة. ولمّا كان في بيئة المدينة المنوّرة آنذاك فئتان أخريان هما الكافرون من العرب واليهود،

والمنافقون فقد نال هذان الفريقان حظّهما. إنّ الحقّ جلّ وعلا ينهى المصطفى ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين الّذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، كما يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يترك أذى الفريقين له عليه الصّلاة والسّلام إلى أن يقضي الله تعالى فيهما بأمره. وبأن يتوكّل على الله تعالى حقّ التّوكّل. وكفى بالله تعالى وكيلاً وحافظاً يغني عن كلّ وكيلٍ وحافظ.

(٤)

« أحكامٌ عامّةٌ للمؤمنين، وأحكامٌ خاصّة بالنّبيّ ﷺ »

الآيات (٤٩ ـ ٥٢)

من القضايا الّتي سبق حديث السّورة الكريمة عنها زواج النّبيّ ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها مطلّقة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه الّذي كان يُدْعَى زيد بن محمّد. وآيات هذا القسم ذات علاقة بأحكام الزّواج والطّلاق. وبعض هذه الأحكام عامٌ للمؤمنين، وبعضها خاصٌ بالنّبيّ ﷺ. إنّ السّياق ينادي الّذين آمنوا ويقول لهم إذا عقدتم على المؤمنات ومن في حكمهنّ من الكتابيّات ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تجامعوهنّ فما لكم عليهنّ من عدة تعتدّونها إلاّ المتوفيّ عنها زوجها فإنّها تعتدّ أربعة أشهرٍ وعشرا. إنّ عليكم أنْ تمتّعوا غير الممسوسة وغير المفروض لها المهر بأنْ تعطوها ما تستمتع به من مالٍ وعَرَض، وأن تسرّحوها سراحاً جميلاً، وأن تطلّقوها طلاقَ سُنّة غير بدعة.

ويخصّ الحديث بعد ذلك النّبيّ ﷺ فيناديه: يا أيها النّبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهنّ مهورهنّ، وأحللنا لك ما ملكت يمينك من سباء أو هبة أو شراء وما إلى ذلك. وأحللنا لك بنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالكَ وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك بخلاف اللاتي لم يهاجرن إلى المدينة المنوّرة،

وأحللنا لك على جهة الخصوص امرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها لك دون مهرٍ وأردت أن تتزوّجها. إنّ هذه الهبة خالصةٌ لك من دون المؤمنين. قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم بألاّ تتزوّج امرأةٌ إلاّ بوليٍّ وصداقٍ عند شاهدي عدل، ولا يحلّ لهم من النّساء إلاّ أربع، كما علمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم، فإنّ جميعهنّ إذا كنّ مؤمنات أو كتابيّات لهم حلالٌ بالسِّباء والتّسرّي وغير ذلك من أسباب الملك. هذا التّبيين لكيلا يكون عليك ضيقٌ وإثمٌ في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف الّتي أبحتُ لك نكاحهنّ من المسمّيات في هذه الآية الكريمة. وكان الله تعالى غفوراً لمن أذنب واستغفر، رحيماً بمن تاب وأناب وعمل صالحاً أن يعذّبه.

وممّا خصّ الله تعالى به النّبيّ ﷺ أنّه جلّ وعلا أسقط عنه القَسْم بين الزّوجات، ومع ذلك فقد كان عليه الصّلاة والسّلام يقسم بين زوجاته كَرَماً منه ونُبْلا. إنّ من حقّه عليه الصّلاة والسّلام أن يؤخّر من يشاء تأخير الاتّصال بها من زوجاته، وأن يضمّ إليه من يشاء الاتّصال بها، ومن أراد الاتّصال بها ممّن عزل وأرجأ فلا جناح عليه ﷺ ولا حرج في كلّ ما يفعل. إنّ أمّهات المؤمنين حينما يعلمن أنّ الله تعالى هو الّذى وضع عَنْكَ الحرج في القَسْم فإنّ ذلك العلم أدنى أن يجعلهنّ قريرات العين، سعيدات النّفوس، بعيدات عن الحُزْن، راضيات كلّهنّ بما أعطاهنّ عليه الصّلاة والسّلام فضلاً منه وكرماً. والله تعالى يعلم ما في قلوب الأزواج من ميلٍ إلى بعض الزّوجات، وذلك معفوٌّ عنه، فعليهم العدل فيما يملكون من قَسْمٍ ومعاملة وما إلى ذلك. وكان الله تعالى عليماً لا يخفى عليه شيءٌ، حليماً لا يعاجل بالعقوبة، فالحذر من الاعتقاد بأنّ إمهال الله تعالى إهمالٌ للظّالمين.

ويلفت النّظر في القول: ﴿ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ﴾ التّعبير عن سعادة النّفس وانشراح الصّدر بقُرَّة العين. والقُرّة من القُرّ بضمّ القاف بمعنى البرد. وحينما تبرد عين العربيّ في بيئته المعروفة بحرّها اللّافح تصحّ العين، وينعكس ذلك على النّفس سعادة، وعلى الصّدر انشراحاً، وعلى القلب بهجة.

وبما أنّ أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين حينما خُيِّرن قد اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة على الحياة الدّنيا وزينتها فقد كافأهنّ الحقّ جلّ وعلا على حُسْن الاختيار. لقد قَصَرَ الله تعالى المصطفى ﷺ على زوجاته التّسع اللّاتى اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدّار الآخرة. إنّه لا يحلّ للمصطفى ﷺ النّساء من بعد هؤلاء الزّوجات أمّهات المؤمنين، ولا أن يطلّق بعضهنّ ويستبدل بهنّ أخريات، ولو أعجبه عليه الصّلاة والسّلام حسنهنّ إلاّ ما ملكت يمينه عليه الصّلاة والسّلام مثل مارية الّتى وَلَدَتْ له إبراهيم ومات في حياته عليه الصّلاة والسّلام. وكان الله تعالى رقيباً على كلّ شيء وحفيظاً، مثيباً على الحسنات، ومعاقباً على السّيّئات.

ومع أنّ الحقّ جلّ وعلا قد أذن للنّبيّ ﷺ بعد ذلك أن يتزوج من شاء من النّساء فإنّه عليه الصّلاة والسّلام لم يفعل، كي تكون المنّة له عليه الصّلاة والسّلام على أمّهات المؤمنين الطّيّبات الطّاهرات، كما أنّه عليه الصّلاة والسّلام كان الغاية في العَدْل في القَسْم بين زوجاته عليه الصّلاة والسّلام حتّى لقي الله تعالى.

(٥)

« الله تعالى وملائكته يصلّون على النّبيّ فصلّوا عليه أيّها المؤمنون وسلّموا، ولا تؤذوا أيّها النّاس المؤمنين والمؤمنات »

الآيات (٥٣ ـ ٥٨)

لقد كان زوجاتُ المصطفى ﷺ أمّهاتُ المؤمنين محطَّ عناية الآيات الكريمات، وكان ما نال بعضَهنّ من أذىً طال المصطفي ﷺ على نحو ما قال الكافرون والمنافقون بشأن زواجه ﷺ من زينب. لقد تحدّثت آيات القسم في بعض الأحكام المتعلّقة ببيت النّبوّة وبشخص المصطفى ﷺ. وإحدى آيات القِسْم

آية الحجاب الّتي نزلت في زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها. ومعروفٌ أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص سبب نزول الآية الكريمة أو الآيات.

ينادي السّياق الّذين آمنوا وينهاهم أن يدخلوا بيوت النّبيّ ﷺ إلاّ أن يدعوهم النّبيّ ﷺ لطعام. وإذا دعاهم عليه الصّلاة والسّلام عليهم أن يأتوا في الوقت المناسب لا أن يأتوا مبكّرين منتظرين نضج الطّعام. إنّ عليهم إذا دُعُوا أن يدخلوا، وإذا تناولوا الطّعام أن يغادروا البيت. وكما نُهُوا أن يبكّروا في المجيء منتظرين نضج الطّعام نُهوا أن يجلسوا بعد تناول الطّعام مستأنسين لحديث بعضهم لبعض. إنّ البقاء بعد تناول الطعام كان يؤذي النّبيّ ﷺ، فها هي ذي زينب رضي الله تعالى عنها جالسةٌ في البيت ووجهها رضي الله تعالى عنها تجاه الحائط. والنّبيّ ﷺ الشّديد الحياء يستحيي من المستأنسين للحديث بعد تناول الطّعام أن يخرجهم. والله تعالى لا يستحيي من الحقّ. وهذا الحكم عامّ. فعلى المسلمين أن يتحلّوْا بهذه الآداب القرآنية، وأن يستمسكوا بالأحكام الإسلاميّة.

وإذا سأل المؤمنون زوجات النّبيّ ﷺ متاعاً يتنفعون به عليهم أن يسألوهنّ من وراء حجاب، ومن خلف سترٍ. إنّ السّؤال من وراء حجاب أطهر لقلوب الرّجال تجاه النّساء، ولقلوب النّساء تجاه الرّجال. وواضحٌ أنّ هذا الحكم عامٌّ كذلك.

إنّه ما كان ينبغي للمؤمنين ولا يصحّ لهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ كالاستئناس بالحديث بعد الطّعام، ولا أن يتزوّجوا أزواجه من بعده مطلقا، إنّ ذلكم الإيذاء والتّفكير بالزّواج بهنّ كان عند الله تعالى إثماً عظيماً وذنباً كبيرا.

إن تبدوا أيّها المؤمنون وأيّها النّاس شيئاً على ألسنتكم أو تخفوه في نفوسكم فإنّ الله سبحانه وتعالى كان بكلّ شيءٍ عليماً، وسيثيب المحسن وسيعاقب المسيء. وإنّه لا جناح ولا إثم على أمّهات المؤمنين وعلى نساء المؤمنين عموماً أن يتركن الحجاب أمام الفئات الّتي نصّت عليها الآية الكريمة. إنّه ليس عليهنّ إثمٌ أن يتركن الحجاب أمام آبائهنّ وأبنائهنّ وإخوانهنّ وأبناء إخوانهنّ وأبناء أخواتهنّ والنّساء المؤمنات، ويلحق بهنّ ذوات العفاف والحياء من غير المسلمات. ولا جناح عليهنّ

أن يفعلن ذلك أمام من ملكت أيمانهنّ من الرّجال والنّساء. وعلى المؤمنات جميعاً أن يتّقين الله تعالى في السّرّ والعلن. إنّ الله تعالى كان على كلّ شيءٍ شهيداً، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وبعد أن بيّن السّياق شيئاً من منزلة المصطفى ﷺ الرّفيعة الّتي ينبغي أن تكون له عليه الصّلاة والسّلام في نفوس العباد، بيّن السّياق شيئاً من منزلته عليه الصّلاة والسّلام في الملأ الأعلى عند ربّ العباد. إنّ الله تعالى يصلّي على محمّد ﷺ في الملأ الأعلى ويثني عليه عند الملائكة الأطهار، وإنّ الملائكة الأطهار تصلّي عليه وتدعو له وتثني عليه. وإنّ واجب المؤمنين أن يصلّوا عليه أيضاً. بل إنّ عليهم ألاّ يكتفوا بالصّلاة عليه وأن يضيفوا إلى ذلك السّلام عليه. إنّهم في الصّلاة يصلّون عليه ويسلّمون كما علّمهم. وإنّهم في غير الصّلاة يقولون: اللّهمّ صلّ على محمّد وسلّم.

والعجيب في أمر الكافرين والمنافقين أنّهم يصرّون على عماهم رغم كلّ هذه الآيات البيّنات، فما أشدّ عذابهم. إنّ الّذين يؤذون الله تعالى بالشّرك وارتكاب المعاصي، والّذين يؤذون رسوله ﷺ على نحو ما خاض المنافقون والكافرون في زواجه ﷺ من زينب بنت جحش، لعنهم الله تعالى وطردهم من رحمته في الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم في جهنّم عذاباً مهينا. والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا من سيّئات فقد احتملوا حِمْلاً ثقيلاً من البهتان والكذب الفاحش، والإثم المبين والذّنب العظيم. إنّ العذاب شَديدٌ إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً.

(٦)

« المنافقون والكافرون ملعونون في الدّنيا والآخرة »

الآيات (٥٩ ـ ٦٨)

بيّن السّياق من ذى قبل أنّ الّذين يؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ ملعونون في

الدّنيا والآخرة، وأنّ الّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا من سيّئات فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا. ويتحدّث السّياق في هذا القسم عن المؤذين من المنافقين والكافرين الملعونين في الدّنيا والآخرة. يبدأ السّياق بنداء النّبيّ ﷺ وأمْرِه أن يقول لزوجاته وبناته الطّيّبات الطّاهرات ولنساء المؤمنين وأن يأمرهنّ بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ، وأن يسترن بثيابهنّ جميع أجسادهنّ. إنّنا بصدد درسٍ بليغٍ للدّعاة بأن يبدأوا بمن يعولون. إنهنّ حينما يفعلن ذلك أقرب أن يعرفهنّ المنافقون بأنّهنّ حرائر وشريفات فلا يؤذَيْن. وكان الله تعالى غفوراً لهنّ ما سبق من عدم إدناء الثّياب وستر الأجساد، رحيماً بهنّ أن يعذّبهنّ بعد أن تُبْنَ وآمنّ وعملن صالحاً. ويذكر السّياق ثلاثة أنواعٍ من المنافقين ومنهم الّذين في قلوبهم شهوة الزّنا فيؤذون النّساء. إنّ المنافقين إن لم ينتهوا عن نفاقهم، والّذين في قلوبهم شهوة الزّنا إن لم ينتهوا عن فجورهم، والمرجفين في المدينة بنشر الأكاذيب بأنّ الأعداء قادمون وسرايا المؤمنين قد هُزِمت، ومنهم من قُتِل، ومنهم من أُثْخن، ومنهم من أُسِر، كلّ ذلك على جهة الفتّ في عضد المسلمين، إن لم ينتهوا عن إرجافهم، ليسلّطنّ الله تعالى عليهم رسوله وليجلينّهم من المدينة قريباً. إنّهم ملعونون ومبعدون من رحمة الله تعالى. أينما وُجِدوا أخذوا أخذا عنيفاً، وقتّلوا تقتيلاً شنيعاً. هذه هي سنة الله تعالى وهذا هو حكمه عزّ وجلّ في منافقي الأمم الماضية. ولن تجد يا محمّد ويا أيّها الإنسان لسنّة الله تعالى تبديلاً وتغييرا.

وينال الكافرون كذلك نصيبهم من التّهديد والوعيد. إنّهم على سبيل الاستهزاء يسألون عن قيام السّاعة. ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للسائلين المستهزئين إنّ علم السّاعة عند الله تعالى وَحْدَه دون مَنْ سواه مِنْ نبيٍّ مرسل ومَلَك مقرّب وكلّ مخلوق. وما يدريك يا محمّد لعلّ السّاعة تكون قريباً لأنّ كلّ آتٍ قريب. إنّ الله تعالى الّذى لعن المنافقين لعن الكافرين وأعدّ لهم ناراً متأجّجةً يدخلونها : ﴿خالدين فيها أبداً﴾ ولا يجدون لهم وليّاً يرعى مصالحهم ولا نصيراً يصرف العذاب عنهم أو يخفّفه. إنّهم لا يجدون وليّاً ولا نصيراً في يوم القيامة الّذى تُقَلَّب فيه وجوه الكافرين في النّار، ويقولون يا ليتنا أطعنا الله تعالى فأفردناه

بالعبادة، وأطعنا الرّسول ﷺ فاتّبعناه. وقالا يا ربّنا إنّا أطعنا في الحياة الدّنيا رؤساءنا الكافرين، وعلماءنا الضّالّين المضّلين، فأضلّونا السّبيل. ربّنا آتهم ضعفين من العذاب بسبب كفرهم وصدّهم عن السّبيل، والعنهم لعناً كبيراً، واطردهم من رحمتك طرداً بعيدا.

(٦)

« ثواب المؤمنين والمؤمنات الّذين يطيعون الله ورسوله عظيم، وعذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات أليم »

الآيات (٦٩ ـ ٧٣)

ينادى السّياق الّذين آمنوا وينهاهم أن يكونوا كبني إسرائيل الّذين آذوا موسى عليه السّلام فبرّأه الله تعالى ممّا قالوا وكان ذا جاهٍ عند الله تعالى. وإنّما كان الحديث عن موسى عليه السّلام بالذّات هنا وفي العديد من المواضع المشابهة في القرآن الكريم بسبب وجه الشّبه الكبير بين ملابسات دعوتي الرّسولين الكريمين، صلّى الله عليهما وسلّم وعلى جميع النّبيّين والمرسلين. وبعد نهي المؤمنين عن إيذاء المصطفي ﷺ أُمِروا بتقوى الله تعالى في السّرّ والعلن وبالقول السّديد والرّأي الرّشيد. إنّهم إن فعلوا ذلك وفّقهم الله تعالى لصالح الأعمال وغفر ذنوبهم : ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ إنّ المؤمنين ينبغي أن يكونوا في مستوى الأمانة الّتى قَبِل حَمْلَها أبوهم آدم عليه السّلام والّتى حملوها من بعده. إنّ الله تعالى عرض الأمانة والفرائض على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها في غير معصية وأشفقن منها بأن يكون تقصيرٌ منهم في حقّها. وحينما عُرِضَتْ على أبينا آدم عليه السّلام قَبِلَ أن يحملها وهو الظّلوم لنفسه،

الجهول بحقيقة قُدْرته. لقد عرض الله تعالى الأمانة على جنس الإنسان ممثلاً في آدم عليه السّلام ليعذّب الله تعالى المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وليَقْبَلَ الله تعالى توبة المؤمنين والمؤمنات. وكان الله تعالى غفوراً لِمَنْ استغفر الله تعالى من ذنبه، رحيماً أن يعذّب من تاب وأناب إلى الله تعالى وآمن وعمل صالحاً.

التّفسير

(١)

(أمّهات المؤمنين أسوةٌ حسنةٌ للمؤمنات وبعض نعوت المؤمنين والمؤمنات)

الآيات (٣١ ـ ٣٥)

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

ومن يقنت منكنّ لله ورسوله : ومن يطع الله ورسوله منكنّ (١) والقُنوت لزوم الطّاعة مع الخضوع (٢) .

نؤتها أجرها مرّتين : يعطها الله ثواب عملها مثلي ثواب عمل غيرهنّ من سائر نساء النّاس(٣) .

وأعتدنا : وأعددنا(٤) .

رزقاً كريما : هي الجنّة(٥) .

يا نساء النّبيّ لستنّ كأحدٍ من النّساء : أحد في الأصل بمعنى وَحَد، وهو

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قنت» ٢/ ٥٣٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عتد» ٢/ ٤١٧.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٢.

الواحد. ثمّ وضع في النّفي العامّ مستوياً فيه المذكّر والمؤنّث والواحد وما وراءه. والمعنى : لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النّساء. أي إذا تُقُصِّيَتْ أمّة النّساء جماعةً جماعةً لم توجد منهنّ جماعة واحدة تساويكنّ في الفضل والسّابقة. ومثله قوله تعالى[1] : ﴿والّذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم﴾ يريد بين جماعة واحدة منهم، تسويةً بين جميعهم في أنّهم على الحقّ المبين»[2] ويقول أبو حيّان[3] : «أي ليس كلّ واحدةٍ منكنّ كشخصٍ واحدٍ من النّساء، أي من نساء عصرك».

فلا تخضعن بالقول : فلا تلنّ بالقول للرّجال فيما يبتغيه أهل الفاحشة منكنّ[4].

فيطمع الّذى في قلبه مرض: فيطمع الّذى في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه إمّا شاكٌّ في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله. وإمّا متهاونٌ بإتيان الفواحش[5] قال عكرمة : مرض : شهوة الزّنا[6].

وقلن قولاً معروفاً : قولاً جميلاً حسناً معروفاً في الخير[7].

وقرن في بيوتكنّ : واقررن في بيوتكنّ. وكأنّ من قرأ ذلك كذلك حذف الرّاء الأولى من اقْرَرْن وهي مفتوحة، ثمّ نقلها إلى القاف كما قيل : فظلْتُم تفكّهون. وهو يريد: فَظَلِلْتُم، فأسقطت اللام الأولى وهي مكسورة، ثمّ نُقِلَتْ

(١) سورة النّساء ١٥٢.

(٢) الكشّاف ٢/ ٥٣٧.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٢٨.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٣.

كسرتها إلى الظّاء[1] وقال القرطبيّ[2] : « وأمّا قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب : قِرتُ في المكان إذا أقمتَ فيه (بكسر الرّاء) أَقَرّ (بفتح القاف) من باب حَمِدَ يَحْمَدُ، وهي لغة أهل الحجاز. . . والأصل : ﴿اقْرَرْنَ﴾ حُذفت الرّاء الأولى لثقل التّضعيف، وألقيت حركتها على القَاف فتقول : ﴿قَرْنَ﴾ واستَغْنِي عن ألف الوصل لتحرّك القاف»[3].

ولا تبرّجن : التّبرّج هو إظهار الزّينة وإبراز المرأة محاسنها للرّجال[4].

تبرّج الجاهليّة الأولى : إنّما قيل الأولى لأنّه يقال لكلّ متقدّمٍ ومتقدّمة أوّل وأُولى. وتأويله أنّهم تقدّموا على أمّة محمّد ﷺ فهم أُولى وهم أوّل من أمّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[5].

إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت : إنّما يريد الله ليذهب عنكم السّوء والفحشاء يا أهل بيت محمّد[6].

ويطهّركم تطهيرا : ويطهّركم من الدّنس الّذى يكون في أهل معاصى الله تطهيرا[7].

من ايات الله : القرآن[8].

والحكمة : السّنّة[9].

---

(١) تفسير الطّبرى ٣/٢٢.

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٦٠.

(٣) انظر تفسير القرطبى ٥٢٦٠.

(٤) تفسير الطّبرى ٣/٢٢.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٣١.

(٦) تفسير الطّبرى ٥/٢٢.

(٧) تفسير الطّبرى ٥/٢٢.

(٨) الجلالين.

(٩) تفسير الطّبرى ٨/٢٢.

إنّ الله كان لطيفاً خبيرا : إنّ الله كان ذا لطف بكنّ إذ جعلكنّ في البيوت الّتي تُتْلى فيها آياته والحكمة، خبيراً بكنّ إذ اختاركنّ لرسوله أزواجا(١).

نادت آخر آيات الجزء السّابق نساء النّبيّ ﷺ وبيّنت لهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أنّ من يأتي منهنّ نشوزٌ وسوء خُلُق يضاعف الله تعالى لها العذاب. قال تعالى : ﴿يا نساء النّبيّ مَن يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين. وكان ذلك على الله يسيرا﴾ وتبيّن أولى آيات الجزء الثّاني والعشرين ثواب من يطيع الله تعالى ويطيع رسوله ﷺ من زوجاته عليه الصّلاة والسّلام الطّيّبات الطّاهرات ويعمل صالحاً منهنّ. إنّ للواحدة منهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ مِثْلَيْ ثواب من تطيع الله تعالى ورسوله ﷺ وتعمل صالحاً من غير زوجاته عليه الصّلاة والسّلام من النّساء المؤمنات. وهكذا يكون للزّوجات الطّيّبات الطّاهرات مِثْلا ثواب غيرهنّ من النّساء الأخريات، وذلك على غرار ما يكون لهنّ مِنْ مِثْلي عذاب من تأتي من النّساء الأخريات من نشوز وسوء خلق. وما أنْأهُنّ رضوان الله تعالى عليهنّ من نشوزٍ وسوء خلق. وإنّما كان لهنّ الثواب والعقاب مضاعفين بسبب اقترانهنّ بالمصطفى ﷺ، ولهذا خوطبن مرّتين اثنتين في السّورة الكريمة بالقول : ﴿يا نساء النّبيّ﴾ وقد عرفنا أنّ النّبيّ ﷺ ينادَى وَحْدَه في القرآن الكريم بصفة النّبوّة أو الرّسالة فيقال : ﴿يا أيها النّبيّ﴾ ﴿يا أيّها الرّسول﴾ وقد أعدّ الله تعالى لهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ في الآخرة رزقاً كريماً وأجراً عظيماً في الجنّة الّتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهذه المنزلة الرفيعة الفريدة لنساء النّبيّ ﷺ أفصحت بها الآية الكريمة التّالية في القول : ﴿يا نساء النّبيّ لستنّ كأحد من النّساء﴾ والمعنى : يا نساء النّبيّ لستنّ مجتمعات كأيّ جماعة من النّساء المسلمات بسبب رفيع منزلتكنّ وعظيم فضلكنّ. وليست الواحدة منكنّ بسبب رفيع منزلتها وعظيم فضلها كأيّ واحدةٍ من النّساء المسلمات.

وبسبب عظيم فضل نساء النّبيّ ﷺ وكونهنّ أمّهاتٍ للمؤمنين كنّ رضوان الله

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٨.

تعالى عليهنّ الأسوة الحسنة للمؤمنات، ولهذا جاء في السّياق مجموعةٌ من الأوامر لهنّ والنّواهي. وإنّ النّساء المسلمات تبعٌ لهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ في كلّ تلك الأوامر والنّواهي.

إنّ نساء النّبيّ ﷺ التّقيّات النّقيّات يُنْهَيْن رضوان الله تعالى عليهنّ أن يلين قولهنّ لغير المحارم فيطمع الّذى في قلبه مرض النّفاق فتزّينّ له نفسه الأمّارة بالسّوء ارتكاب جريمة الزّنا، ويحثّه الشّيطان الرّجيم عليها. إنّ على المرأة المسلمة أن تتأسى بأمّهات المؤمنين حينما تضطرّ الواحدة منهنّ لمخاطبة الرّجال بأن يكون قولها معروفاً شرعاً وعقلاً وعُرفاً، شكلاً ومضموناً. أمّا الشّكل فاستقامة القول وصرامته: وأمّا المضمون فصحّة المعنى مع طهره.

وعلى النّساء المسلمات أن يتأسيّ بأمّهات المؤمنين في البقاء في البيوت وعدم الخروج منها إلاّ لضرورة وحاجة. ومن الحوائج الشّرعيّة الصّلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهنّ تَفِلات(١) وفي رواية: وبيوتهنّ خيرٌ لهنّ(٢).

ويُنْهَيْن رضوان الله تعالى عليهنّ عن أن يتبرّجن تبرّج الجاهليّة وأن يبرزن محاسنهنّ للرّجال الّذين لا يحلّ للنّساء أن يبدين لهم زينتهنّ الباطنة وزينتهنّ الظّاهرة من ثياب في رأي بعضهم، والوجه والكفين في رأي بعضهم. لقد كان النّساء في الجاهليّة الأولى والفترة السّابقة على الإسلام يتعمّدن أن يكشفن لجميع الرّجال عن زينتهنّ ويحرصن على أن تحلو الواحدة منهنّ في أعينهم. وكما كان التّبرّج في الجاهليّة داخل البيوت كأن خارجها.

ويؤمرن رضوان الله تعالى عليهنّ أن يُقِمْن الصّلاة عماد العبادات البدنيّة في الأسلام، ويؤتين الزّكاة مستحقّيها، وهي عماد العبادات الماليّة في الإسلام، وأن يطعن الله تعالى ورسوله ﷺ في كلّ الأوامر والنّواهي. وبذلك نكون بصدد عطف العامّ على الخاصّ.

---

(١) أي تاركات للطيب.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٠٥

ويعيّن السّياق المرتبة الرفيعة الّتى يراد لأمّهات المؤمنين أن يرقين إليها. إنّ الله تعالى يريد بتلك الأوامر والنّواهي أن يُذْهب كلّ سوء عن أهل بيت النّبيّ ﷺ، وأن يطهّرهم من الدّنس الّذى يكون في أهل المعاصى تطهيراً كاملاً، وأن ينقّيهم من أدنى الشّوائب تنقيةً لا نقاء وراءها، ولا تصفية أفضل منها.

ويؤمرن رضوان الله تعالى أن يذكرن بقلوبهنّ وألسنتهنّ وجوارحهنّ ما يُتْلَى في بيوتهنّ من آيات الكتاب العزيز، ومن سنّة المصطفى ﷺ المطهّرة، مِنْ أقوالٍ له عليه الصّلاة والسّلام وأفعالٍ وصفاتٍ أو شمائل، ومن تقريرات، والمراد ما أقرّ المصطفى ﷺ المؤمنين على فعله. فعلى سبيل المثال أُكِل الضّب على مائدة المصطفى ﷺ فَعُلِم بإقرار أكله أنّ أكله حلال(١).

إنّ أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ هنّ الأسوة الحسنة للنّساء المؤمنات، يتأسين بهنّ ويقتدين.

---

(١) انظر هنا باب الضّبّ الحديث رقم ٥٥٣٦ فتح الباري ٩/ ٦٦٢ والحديث رقم ٥٥٣٧ فتح الباري ٩/ ٦٦٣.

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

والقانتين والقانتات : القُنوت : الطّاعة في سكون(١) وخضوع(٢).

والخاشعين والخاشعات : الخشوع : السّكون والطّمأنينة والتّؤدة والوقار والتّواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته(٣) وأكثر ما يُستَعْمَل فيما يوجد في القلب(٤).

سبب النزول.

روى الإمام أحمد والنّسائيّ وغيرهما أنّ أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ قالت : قلت للنّبيّ ﷺ : ما لنا لا نُذْكَر في القرآن كما يُذْكر الرّجال؟ قالت : فلم يَرُعْنِي منه ذات يوم إلاّ ونداؤه على المنبر، قالت : وأنا أسرّح شعري، فلففت شعري ثمّ خرجت إلى حجرة من حُجر بيتي فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر : يا أيّها النّاس، إنّ الله يقول : ﴿إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ إلى آخر الآية(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤١٤.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قنت» ٢/ ٥٣٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤١٤.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خشع» ١/ ١٩٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤١٣.

أشار السّياق من ذى قبل لبعض نعوت أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ، وهنّ الأسوة الحسنة للمسلمات والمؤمنات. ومن هذه النّعوت القُنوتُ وإقامُ الصّلاة وإيتاءُ الزّكاة وذكر الله تعالى ذكراً كثيرا. وفي هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن نعوت المسلمين والمسلمات ذكر بعض هذه النّعوت صراحةً كالقنوت وذكر الله تعالى، أو ضمناً كإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة لأنّ الخشوع من متعلّقات الصّلاة، ولأنّ الصّدقة تشمل الزّكاة.

وحينما يكون سؤال أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها النّبيّ ﷺ: ما لنا لا نُذْكر في القرآن كما يُذْكر الرّجال؟ مِن أسباب نزول الآية الكريمة يكون معنى ذلك أنّ هذه النّعوت ينبغى اتّصاف أمّهات المؤمنين بها في المقام الأوّل، لأنّهنّ الأسوة الحسنة للمؤمنات. لقد كان أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ الأسوة الحسنة فعلاً للمؤمنات والقدوة المُثْلَى لهنّ.

وحينما ننظر إلى النّعوت في الآية الكريمة، وهي عشرةٌ كاملة، يتبيّن أنّ منها ما هو أقرب إلى كونه لازماً، ومنها ما هو أقرب إلى كونه متعدّياً إلى الآخرين. ولا شكّ أنّ كلّ هذه النّعوت الّتى يغلب عليها اللّزوم أو التّجاوز إلى الآخرين تنعكس على الأخلاق والسّلوك والمعاملة. وبناءً على ذلك يصحّ أن يقال عن نعوت المجموعة الأولى إنّها النّعوت اللّازمة المتعدّية كالإسلام والإيمان والقنوت والصّدق والصّبر والخشوع. كما أنّه يصحّ أن يقال عن نعوت المجموعة الأخرى إنّها النّعوت المتعدّية اللّازمة كالصّدقة وحفظ الفرج.

وتبدأ النّعوت بالإسلام. ولمّا كان نعت الإسلام قد تلاه نعت الإيمان فذلك معناه أنّ المراد بالإسلام هنا الاعتراف باللّسان الّذى يُحْقن به الدّم وحصل معه الاعتقاد. فثمّة توافقٌ بين النّطق باللّسان والاعتقاد بالجَنان[1] أي بالقلب، وهذا النّوع الأوّل من الإسلام يُفْضِى إلى الإيمان. والإيمان يُفْضِى بدوره إلى النّوع الآخر من الإسلام، بمعنى الاستسلام لله تعالى بالخضوع، والانقياد له عزّ وجلّ بالطّاعة، والخلوص من الشّرك. قال عزّ من قائل: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾.

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سلم» ١/ ٣١٧.

وأركان الإسلام الخمسة عبّر عنها المصطفى ﷺ بالقول جواباً على السائل : «أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله وتقيم الصّلاة وتؤتي الزّكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا»(١) وأركان الإيمان الستّة عبّر عنها المصطفى ﷺ بالقول جواباً على السائل نفسه : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشرّه»(٢).

وحينما يكون الإسلام بمعناه الآخر تالياً للإيمان فذلك معناه أنّه قريبٌ من الإحسان ذى الرّكن الواحد والّذى عرّفه النّبيّ ﷺ للسّائل ذاته بالقول : «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»(٣).

وهكذا تتداخل أركان الإسلام والإيمان حتّى تلتحم بركن الإحسان، وكأنّ النّعوت التّالية في الآية الكريمة تفضى إلى مرتبة الإسلام العالية وإلى مرتبة الإحسان الرّفيعة.

ويأتى نعت القُنوت بعد نعتي الإسلام والإيمان. قال تعالى : ﴿والقانتين والقانتات﴾ وللقُنوت معانٍ مختلفة. وقد تكرّر ذكره في الحديث الشّريف وورد بمعانٍ متعدّدة : كالطّاعة، والخشوع، والصّلاة، والدّعاء، والعبادة، والقيام، وطول القيام، والسّكوت(٤) والمشهور في اللّغة أنّ القُنوت الدّعاء. وحقيقة القانت أنّه القائم بأمر الله. وحقيقة القُنوت العبادة والدّعاء لله عزّ وجلّ، في حال القيام. ويجوز أن يقع في سائر الطّاعة، لأنّه إن لم يكن قيامٌ بالرّجلين فهو قيامٌ بالشّيء بالنّيّة(٥).

بناءً على ما سبق نستطيع أن نفهم قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿والقانتين والقانتات﴾ بأنّهم المطيعون لله تعالى طاعةً مطلقة والمطيعات، ومن أهمّ مظاهر

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٥٧.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٥٧.

(٣) صحيح مسلم ١/ ١٥٧ وانظر الحديث في صحيح البخارى ١/ ١٩ و ٢٠. وفتح البارى ١/ ١١٤ حديث رقم : ٥٠

(٤) لسان العرب : «قنت».

(٥) انظر لسان العرب : «قنت».

الطّاعة إقام الصّلاة، والتّضرّع إلى الله تعالى بإخلاص الدّعاء، وإطالة القيام. وبذلك تُذْكر الصّلاة ويكون الحثّ على إقامتها ضمناً بعد ذكر نعتي الإسلام والإيمان، بسبب اقتران القُنوت بالصّلاة في المقام الأوّل. ومعروفٌ أنّ إقام الصّلاة أهمّ أركان الإسلام الأربعة بعد الشّهادتين.

وبعد ذكر القُنوت، وهو بمعنى الطّاعة المطلقة الّتي تتجلّى في الصّلاة، أبهى حُلَل الطّاعة، ومن متعلّقات الصّلاة القيامُ والدّعاء، يأتي ذكر بعض مظاهر طاعة الله تعالى، وفي مقدّمتها الصّدق. قال تعالى : ﴿والصّادقين والصّادقات﴾ جاء في الحثّ على الصّدق قولُ الحقّ جلّ وعلا في سورة التّوبة[1] : ﴿يا أيها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين﴾ ويكون الصّدق أوّلاً مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ المبلّغ عنه جلّ وعلا. ويكون الصّدق نعتاً يتحلّى به المؤمن والمؤمنة دائماً وأبداً. والمؤمن الحقّ لا يكذب. وقد جاء في هذه السّورة الكريمة ثناءٌ على المجاهدين الصّادقين الّذين وفَوْا بما عاهدوا الله تعالى عليه من جهادٍ في سبيله عزّ وجلّ بالنّفس والنّفيس. قال تعالى[2] : ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا. ليجزي الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. إنّ الله كان غفوراً رحيما﴾ وهكذا يتجلّى صدق إيمان القانتين الّذين يطيلون في صلاتهم الدّعاء قائمين في المقام الاوّل ويتجلّى في صدقهم عموما، وصدقهم في الجهاد في سبيل الله تعالى خصوصاً.

ولمّا كان كلٌّ من الصّلاة والجهاد في سبيل الله تعالى بحاجة إلى الصّبر، لذا كان الصّبر هو النّعت التّالي في الذّكر. قال تعالى : ﴿والصّابرين والصّابرات﴾ ويكاد يكون نصيب الرّجال موفوراً من الصّبر في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى. ويكاد يكون نصيب الجنسين من الصّبر في مجال الصّلاة واحداً. قال عزّ

---

(١) الآية ١١٩.

(٢) سورة الأحزاب ٢٣ و ٢٤.

من قائل[1] : ﴿إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾ ومعروفٌ أن الحروب لا تدوم. وبنصّ القرآن الكريم الصّلاة كبيرةٌ وشاقّةٌ إلاّ على الخاشعين لأنّ إقامها على وجهها يحتاج إلى الصّبر. قال تعالى[2] : ﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين﴾.

ولمّا كانت الصّلاة بحاجة إلى الصّبر لإقامتها، وقد جاء نعت الصّبر في القول : ﴿والصّابرين والصّابرات﴾ وكان الخشوع من صفات المؤمنين المصلّين، وقد قال عزّ من قائل في سورة المؤمنون[3] : ﴿ قد أفلح المؤمنون. الّذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فقد جاء النّعت بالخشوع إثر النّعت بالصّبر. قال تعالى : ﴿والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات﴾.

والخشوع في الصّلاة بمعنى التّذلّل لله تعالى فيها بطاعته[4] وهو ثمرة خضوع القلب وخشيته. وهكذا يتناغم خشوع القلب باطناً، وخشوع الجوارح ظاهرا.

وإذا كان الصّبر والخشوع من متعلّقات الصّلاة وهي الرّكن الثّاني من أركان الإسلام فكأنّ في ذكر الصّبر والخشوع ذكراً ضمنيّاً للصّلاة. والمعروف أنّ الصّلاة والزّكاة تقترنان عادةً في القرآن الكريم. وها هي ذي الزّكاة الرّكن الثّالث من أركان الرسلام تدخل في نعت الصّدقة وذلك في القول : ﴿والمتصدّقين والمتصدّقات﴾ إنّ الّذى يتصدّق طواعيةً ابتغاء وجه الله تعالى إنّما يتصدّق بعد أن يكون قد آتى الزّكاة المفروضة عليه. وهكذا تُذْكر الزّكاة ضمناً بعد أن ذُكِرَت الصّلاة ضمناً، علماً بأنّ أمّهات المؤمنين الأسوة الحسنة للمؤمنات قد أُمِرْن صراحةً من ذى قبل بأن يُقِمْن الصّلاة ويؤتين الزّكاة.

ثم يأتى الرّكن الرّابع من أركان الإسلام بصريح اللّفظ : ﴿والصائمين والصائمات﴾ وكما دخلت الزّكاة في الصّدقة في القول : ﴿والمتصدّقين

---

(١) سورة النّساء ١٠٣.

(٢) سورة البقرة ٤٥.

(٣) الآيتان ١ و ٢.

(٤) تفسير الطّبرى ١٨/ ٢.

والمتصدّقات﴾ دخل صيام النفل في صيام الفرض في القول : ﴿والصّائمين والصائمات﴾.

وللصّيام الكثير من الفوائد منها أنّه في حقّ الشّباب على جهة الخصوص أغضّ للبصر وأحصن للفرج. وقد جاءت الحكمة من الصّوم في النّعت التّالى : ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ وقد جاء في نعت المؤمنين[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿والّذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾.

وكما كان ثمّة إيماءٌ بشأن ركني الصّلاة والزّكاة كان ثمّة إيماءٌ بشأن الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام وذلك في القول : ﴿والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرت﴾ وإنّ الحديث في نعت الذّكر يذكّرنا بالحثّ على ذكر الله تعالى في الحجّ بأكثر من ذكر الآباء والأجداد والأمجاد، وذلك في أثناء حديث الآيات الكريمات من سورة البقرة عن الحجّ. قال تعالى[2] : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً. فمن النّاس من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا وما له في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار. أولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا. والله سريع الحساب﴾.

ويكون الذّكر باللّسان، وبالقلب الموصول دائماً بالله تعالى، وبالجوارح الّتى تترجم عن كلٍّ من اللّسان والقلب عملاً صالحاً يراد به وجه الله تعالى.

إنّ للرّجال والنّساء الّذين يتّصفون بتلك النّعوت مغفرةً من الله تعالى لذنوبهم، وأجراً عظيماً هو الجنّة ثواباً لهم على أعمالهم الصّالحة الّتى أرادوا بها وجه الله تعالى.

---

(١) سورة المؤمنون ٥-٧.

(٢) سورة البقرة ٢٠٠-٢٠٢.

وكما ذُكِرَت الأركان الأربعة بعد الشّهادتين صراحةً أو ضمناً ذُكر الرّكن الأوّل ضمناً، لأنّ أوّل أركان الإسلام شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله. ونَعْتُ الإسلام أوّل النّعوت في الآية الكريمة. كما أنّ الإيمان بالله تعالى وبرسله من أركان الإيمان. وهكذا يتبيّن أنّ كلّ النّعوت في الآية الكريمة ترتبط بتطبيق أركان الإسلام الخمسة.

(٢)

(محمّد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين، وليس أبا أحدٍ من رجال النّاس)

الآيات (٣٦ ـ ٤٠)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

الخِيَرَةَ : الاختيار(١) وما يُتَخَيَّر(٢) .

سبب النّزول.

عن ابن عباسٍ أنّ رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسديّة فخطبها فقالت : لست بناكحته. فقال رسول الله ﷺ فانكحيه فقالت : يا رسول الله، أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدّثان أنزل الله هذه الآية على رسوله : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ﴾ إلى قوله : ﴿ضلالاً مبينا﴾ قالت قد رضيتُهُ لي يا رسول الله منكحا. قال : نعم. قالت : إذاً لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي(٣) وروي أنّ الآية الكريمة نزلت في أسبابٍ أخرى من هذا القبيل(٤).

بعد أنّ بيّنت الآية الكريمة السّابقة نعوت المؤمنين والمؤمنات بيّنت هذه الآية الكريمة التّالية وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ طاعةً مطلقة.

والآية الكريمة تقرّر أنّه ما كان يصحّ ولا ينبغي لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله تعالى وقضى رسوله ﷺ أمراً من الأمور أن يكون لهم حريّة الاختيار من أمرهم

---

(١) الجلالين.

(٢) الكشّاف ٢/ ٥٣٩.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩ وتفسير ابن كثير ٦/ ٤١٧.

(٤) انظر ـ مثلاً ـ تفسير الطّبري ٢٢/ ١٠ وتفسير ابن كثير ٦/ ٤١٧-٤١٩ ولباب النّقول في أسباب النّزول للسّيوطي، مطبوع بهامش الجلالين وتفسير القرطبي ٥٢٦٨ وفيه : «فظنّت أنّ الخطبة لنفسه، فلمّا تبين أنه يريدها لزيد كرهت. . . .»

بالقبول أو الرّفض. إنّ على كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ أن يقبل ما قضى الله تعالى به وقضى رسوله ﷺ وأن يكون راضياً تمام الرّضا بما قضيا. ويستوى في هذا الأمر زينب بنت جحش وأخوها عبد الله رضي الله تعالى عنهما وكلّ مؤمنٍ ومؤمنة. وبشأن زينب وأخيها هما بادرا بعد نزول الآية الكريمة إلى الرّضا بما قضى الله تعالى وقضى رسوله ﷺ من زواج زينب ابنة عمّة المصطفى ﷺ أميمة بنت عبد المطلب[1] ذات الحسب والنّسب من زيد بن حارثة رضيَ الله تعالى عنه الّذى استرقّه سارقوه وباعوه والّذى أعتقه النّبيّ ﷺ وتبنّاه قبل البعثة فكان يقال له : زيد ابن محمّد. وبنزول سورة الأحزاب الّتى عالجت مسألة التّبنّى العميقة الجذور عند العرب أصبح يقال له زيد بن حارثة فعوّضه الله تعالى بمجيء اسمه وَحْدَه في القرآن الكريم دون سواه من أفراد الأمّة المحمّديّة وذلك في الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين من سورة الأحزاب. قال تعالى : ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا. وكان أمر الله مفعولا﴾.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الّذى يعصى الله تعالى ويعصى رسوله ﷺ قد ضلّ ضلالاً بيّناً وانحرف عن الصّراط المستقيم انحرافاً واضحاً.

---

(١) فتح البارى ٨/٥٢٣.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

وإذ تقول : واذكر يا محمّد إذ تقول(١).

للّذى أنعم الله عليه : بالإسلام ومتابعة الرّسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام(٢) فدلّ على أنّه من أهل الجنّة. علم ذلك قبل أن يموت(٣) يعنى زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ(٤).

وأنعمت عليه : يا محمّد بالعتق من الرّق(٥) كان من سبي الجاهليّة. اشتراه رسول الله ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبنّاه(٦).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٠ والجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٦٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤١٩ و انظر الجلالين وتفسير القرطبى ٥٢٧٠ وتفسير الطّبرى ٢٢/ ١٠.

(٣) تفسير القرطبى ٥٢٧٦.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٠.

(٥) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ١٠ والجلالين وتفسير ابن كثير ٦/ ٤١٩. وتفسير القرطبى ٥٢٧٠ وترجمة زيد ابن حارثة في الإصابة ١/ ٥٦٣ وفي تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٢٠٢.

(٦) الجلالين.

أمسك عليك زوجك : إمساك الشّيء التّعلُّق به وحفظه(١).

واتّق الله : في أمر طلاقها(٢) وخف الله في الواجب له عليك في زوجتك(٣) وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمّته زينب بنت جحش الأسديّة، وأمّها أميمة بنت عبد المطّلب(٤) وأصدقها عشرة دنانير، وستّين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرْعا، وخمسين مدّاً من طعام، وعشرة أمداد من تمر(٥).

وتُخْفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه : عن عليّ بن الحسين [ابن عليّ](٦) أنّ النّبيّ ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أنّ زيداً يُطلّق زينب، وأنّه يتزوّجها بتزويج الله إيّاها. فلمّا تشكّى زيدٌ للنّبيّ ﷺ خُلُق زينب، وأنّها لا تطيعه، وأعلمه أنّه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصيّة : اتّق الله في قولك وأمسك عليك زوجك، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوّجها. وهذا هو الّذي أخفى في نفسه. ولم يرد أن يأمره بالطّلاق لمّا علِمَ أنّه سيتزوّجها. وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قولٌ من النّاس في أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها. فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي النّاس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال : ﴿أَمْسِكْ﴾ مع علمه بأنّه يطلّق. وأعلمه أنّ الله أحقّ بالخشية، أي في كلّ حال. قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية. وهو الّذي عليه أهل التّحقيق من المفسّرين والعلماء الرّاسخين، كالزّهريّ والقاضي بكر بن العلاء

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : (مسك) ٢/٦٠٦.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/١٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤١٩ وفتح الباري ٨/٥٢٣.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/٤١٩.

(٦) هذه الزّيادة من فتح الباري ٨/٥٢٤.